سيمائية اللون في قصيدة (ضد من) لأمل دنقل
دراسة تحليلة

ميمونة محمد مدخلي●
باحثة أكاديمية بجامعة جازان -السعودية.

مدخل

تتضافر آليات الكتابة في النص الأدبي عند أمل دنقل على مستوياته المتعددة: الصوتي، والتركيبي، والدلالي...إلخ، وذلك بغرض إحداث منظومة مترابطة من الدلالات والمضامين الشعرية، ومن أهم هذه الآليات: عنصر التكثيف الدلالي من خلال التركيز على علامات لغوية أو إشارية تتضمن مدلولاً يعبر عن رؤية الشاعر تجاه الأشياء والعالم.

وفي هذا الدراسة أسعى إلى مقاربة سيميائية لقصيدة (**ضد من؟**) لأمل دنقل وهو من الشعراء الذين جددوا في بنية القصيدة الحديثة ومضمونها، وقد أصيب في أواخر حياته بالمرض، فجعله هزيلاً منهك القوى، لكن ذلك لم يمنعه من مواصلة كتاباته الشعرية، وفي هذه المرحلة –كما يقول بعضهم عنه–: إنه راح "يغوص في الأعماق، ونظر إلى جوهر الأشياء وإلى الحقيقة الكامنة وراء الظواهر بالشمول"[١].

وقد ركزت في دراستي على تحليل سيمائية (**اللون**) في القصيدة بوصفه مفردة تعبيرية تحمل كثيرا من المضامين والمدلولات، وذلك لأن اللون –إذا أحسن الشاعر البوح بمضمر الخطاب الأدبي من خلاله–فإنه يصبح أيقونة دلالية تحمل أحاسيسه ورؤيته، وبخاصة إذا كان أحد مكونات المفارقة في النص الأدبي.

ولذا نجد اللغويين –قديمًا وحديثًا–يهتمون بالحديث عن اللون وألفاظه ومفرداته، واستعمالاته المجازية والأدبية، ومن أبرز هؤلاء في العصر الحديث د.أحمد مختار عمر في كتابه (اللغة واللون)[٢]، حيث يعقد فصلاً عن (ألفاظ الألوان والتعبيرات اللغوية)، وكذلك الحديث عن إيحاءاته وانعكاساته النفسية...إلخ.

أما القصيدة (**ضد من**) فهي من ديوان: (**أوراق الغرفة رقم ٨**)، وقد كتبها الشاعر في أواخر حياته في فترة صراعه مع المرض. لأن هذا الرقم (٨) هو رقم غرفته بالمستشفى، حيث قضى ما يقارب أربع سنوات من عمره طريح الفراش، وأمل دنقل معروف باستعمال الكلمة في مجابهة الواقع[٣]، وبإيمانه الراسخ بالوطن.

أما على المستوى الفني فقد كان واسع الأفق والخيال، يمتاز شعره بالسهولة والعذوبة، والتكثيف الدلالي، لأنه كان يحمل مضمونًا يتصل بالواقع أو الذات والحياة، فقد كانت الفترة التي عاشها أمل دنقل ١٩٤٠-١٩٨٣م، من الفترات المليئة بالأحداث في مصر والأمة العربية، حيث الفترة الأخيرة من الاحتلال الإنجليزي لمصر، وتحول نظام الحكم، ثم العدوان الثلاثي ١٩٥٦م،ثم نكسة ١٩٦٧م، ثم نصر أكتوبر ١٩٧٣م، ثم معاهدة كامب ديفيد...إلخ، وكلها من المؤثرات السياقية التي أثرت في وعي الشاعر وكتابته، فلم يكن يدع فرصة إلا وشارك برأيه، وطرح وجهة نظره.

وبالرغم من فترة حياته القصيرة نسبيًّا -حيث لم يتجاوز عامه الرابع والأربعين-، فإنه قد ترك نتاجًا شعريًّا ثريًّا، وهو عبارة عن ستة دواوين هي: (البكاء بين يدي زرقاء اليمامة ١٩٦٩م)، و(تعليق على ما حدث ١٩٧١م)، و(مقتل القمر ١٩٧٤)، و(العهد الآتي ١٩٧٥م)، و(أقوال جديدة عن حرب البسوس ١٩٨٣)، و(أوراق الغرفة رقم٨ صدر عام ١٩٨٣) وديوان (إجازة فوق شاطئ البحر) [٤].

وقد جاء هذا البحث بغرض تحليل (اللون) بوصفه عنصرًا فنيًّا من عناصر بناء النص الشعري في هذه القصيدة. وقد جاء في نقطتين:

- المنهج السيمائي وتحليل العلامات
- سيميائية اللون في القصيدة

أولا: المنهج السيميائي وتحليل العلامات.

تعددت المناهج والحقول المعرفية النقدية الحديثة التي برزت مع تطور علم اللغة، فظهرت مناهج نقدية متنوعة تدرس النص الأدبي: منها الأسلوبية، والبنيوية، والبنيوية التكوينية، والتفكيكية، والسيميائية. ويعد المنهج السيميائي أبرز هذه المناهج النقدية الحديثة وحقلاً من حقول المعرفة الراسخة في مجال الدراسات الحديثة، وقد احتل هذا المنهج مكانًا متميزًا بين الدراسات اللغوية والنقدية، فأصبح يحظى باهتمام عدد متزايد من النقاد والباحثين في دراسة النص الأدبي.

إذ إن هذا المنهج قد أخذ اتجاهًا مغايرًا عن المنهج البنيوي في نظرته ومقاربته للنص، فالمنهج البنيوي يعتبر النص بنية لغوية مغلقة على ذاتها لا تحيل إلى أية مرجعية أخرى تقع خارج النص، بينما المنهج السيميائي يبحث في مكونات النصوص البنيوية الداخلية، وفي مولداتها وأسباب تعددها، ولذلك فإن السيميائية "ندّ نقدي يعضد البنيوية ويتضافر معها في مسعى استكشاف النص ودراسته على منطلقات الألسنية ومبادئها"(٥)، وتهتم السيميائية في مجملها بتفسير معاني الدلالات والرموز والإشارات الداخلة في مجالات اللغة والتعبير والفن والأدب..وفي مجالات أخرى كالطب والرياضيات وعلم النفس وعلم الاجتماع، فهي تُعنى في الأساس بالعلامات والإشارات والرموز.

المنهج السيميائي: المصطلح والمفهوم

تعددت المفاهيم الخاصة بمصطلح السيمائية في النقدين العربي والغربي، فهي في أحد تعريفاتها "النشاط الذي يختص بالبحث في طبيعة العلامات التي يستخدمها الذهن للوصول إلى فهم الأشياء أو في توصيل معرفة إلى الآخرين"(٦).

والسيميائية بمعناها العام "هي علم الإشارة الدالة مهما كان نوعها وأصلها، وهي بهذا تدل على أن النظام الكوني بكل ما فيه من إشارات ورموز هو نظام ذو دلالة"(٧)، وقد أصبح هذا العلم ميدانًا خصبًا لدراسة النص الأدبي، ومجالاً ثريًّا ينعكس أثره على النص تأويلاً وتفسيرًا وشرحًا.

والسيميائية ترتكز على ثلاثة عناصر(٨)، هي:

أ- العلامة: ونجد أن العلاقة بين الدال والمدلول فيها سببية فالدخان علامة على النار، والطرق على الباب علامة على وجود شخص بالباب.

ب- المثل: ونجد أن العلاقة فيه تقوم على التشابه، فالرسم هو شبه المرسوم، والتمثال هو شبه المنحوت.

جـ- الإشارة أو الرمز في لغة بيرس: وسوسير يفضل مصطلح إشارة، ويرى أن العلاقة فيها اعتباطية.

والنص الأدبي باعتباره كائنًا حيًّا يعد منظومة من الدوال الإشارية التي تحمل في طياتها العديد من المدلولات التي تختلف باختلاف رؤية الأديب لما حوله، "فالإنسان يقرأ الكون المحيط به من خلال علامات، ويعبر عنه من خلال أنظمة مختلفة من العلامات سواء كانت لغةً، أو رسمًا أو رموزًا"(٩)، وتصور الرسالة الأدبية المقروءة عبر المتلقي يقع عبر نظام تواصلي يسهل التفاعل معها في حالتي الإرسال والاستقبال، "فالإنسان يرى نفسه والعالم المحيط به من خلال علامات، ولكنه يعبر عنها أيضًا من خلال علامات أخرى، يستنبطها لتحقيق عملية التواصل"(١٠).

وإذا كان المفهوم العام للسيمائيات يختلف في بعض جوانبه عن التصور الفلسفي اللغوي فبوسعنا أن نتفق مع الرأي القائل إن "النظام السيمائي اللغوي يوفر حصادًا أوفر وأسرع على مستوى توليد الدلالة، وإمكانيات التأويل. وبالفعل فنحن نترجم ما نحس به وما تدركه حواسنا إلى كلمات...إلا أن نجاح

التواصل يتطلب أن يستعمل طرفا عملية التواصل –أي المرسل والمتلقي–نفس السنن، وأن تقحم العلامة اللغوية في نظام دلالة"(١١).

لذا نجد الأديب يتحرك في مساحة متسعة من الإبداع، توفره له إمكانات اللغة عبر الرموز الدالة، "فنحن نستعمل الكلمات في التعبير عن الأشياء وعن الأحاسيس، ولكننا في الحقيقة لا نرى تلك الأشياء، ولا ندرك تلك الأحاسيس إلا من خلال الكلمات"(١٢). كما يتحرك النقد في مساحة أوسع من التحليل عبر نظام قرائي تتيحه تأويل الأنظمة اللغوية في مستوياتها المتعددة.

ثانيًا: القصيدة ودلالات اللون

سيمائية اللون في قصيدة (**ضد من**) تنبع من فلسفة خاصة لدى الشاعر، هي فلسفة الحياة والموت، وقد أشرت إلى أن هذه القصيدة إحدى قصائد ديوان: (**أوراق الغرفة رقم٨**)، وذلك في المرحلة التي كان فيها طريح الفراش –طيلة أربع سنوات–يصارع المرض، وقد كانت هذه المدة كفيلة أن تصوغ إحساس أمل دنقل على نحو خاص أقرب إلى النزعة الصوفية في مرحلة منه، وإلى النزعة التشاؤمية في مرحلة أخرى.

يقول الشاعر:

"في غرف العمليات
كان نقاب الأطباء أبيض
لون المعاطف أبيض
تاج الحكيمات أبيض
أردية الراهبات
الملاءات
لون الأسرَّة، أربطة الشاش والقطن
قرص المنوم، أنبوبة المصل

كوب اللبن

كل هذا يشيع بقلبي الوهن

كل هذا البياض يذكرني بالكفن

فلماذا إذا مت

يأتي المعزون متشحين بلون الحداد

هل لأن السواد

هو لون النجاة من الموت

لون التميمة ضد .. الزمن

ضد من؟

ومتى القلب –في الخفقان–اطمأن

***

بين لونين: أستقبل الأصدقاء

الذين يرون سريري قبرا

وحياتي دهرا

وأرى في العيون العميقة

لون الحقيقة

لون تراب الوطن"[١٣].

- **العنوان وبنية النص الشعري**

الملاحظ على العتبة الأولى للنص (العنوان) أنه مثير لكثير من الدلالات المضمرة في خلجات القصيدة، فالسؤال عن مجهول، وذلك مستفاد من أداة الاستفهام (**مَن؟**) كما أن الشيء الذي يَسْأل لأجله –لا عنه– أيضًا مجهول، ضد من؟ والسؤال: ما هو الذي قلنا لأجله: ضد من؟

وعلى وجه السرعة نستنبط فلسفة أمل دنقل الخاصة التي يكتشفها من أدمن النظر في شعره، فهذه طريقته المثيرة في استبطان الخبر من قلب الإنشاء، كما في قوله:

أتنسى ردائي الملطخ

تلبس –فوق دمائي– ثيابًا مطرزة بالقصب

إنها الحرب...

قد تثقل القلبَ

لكنَّ خلفك عار العرب

لا تصالح

ولا تتوخ الهرب(١٤).

بالإضافة إلى أن جملة (**ضد من**) هي جزء من أجزاء القصيدة التي نحن بصدد تحليلها في هذا البحث، وذلك في قوله:

هل لأن السواد

هو لون النجاة من الموت

لون التميمة ضد .. الزمن

ضد من؟

وقد أشار بعض الباحثين إلى أن "اقتباس العنوان من البنية الشعرية هو اصطفاء من الشاعر وانتقاء لصورة ذات أبعاد مميزة نفسيًّا أو دلاليًّا أو فنيًّا؛ لكونه يراها بؤرة أو مرتكزًا يشد إليه باقي الكلمات المسهمة في النسيج اللغوي للنص، وهذا الاصطفاء يحول تلك الصورة المنتقاة من مجرد عنصر بنائي جزئي إلى بنية مركزية"(١٥).

ويرى رولان بارت أن "العناوين عبارة عن أنظمة دلالية سيمائية تحمل في طياتها قيمًا أخلاقية واجتماعية وأيدلوجية، وهي وسائل مسكوكة مضمنة بعلامات دالة، مشبعة برؤية العالم، يغلب عليها الطابع الإيحائي"(١٦).

إذًا فبنية العنوان هي البنية الأولى التي تعد بمنزلة المفتاح السحري الذي بواسطته تفكك بنية النص الأدبي، لذلك اهتمت السيميائية به اهتمامًا بالغًا في عملية تحليل النصوص، وليس مبالغة أن يقال "إن العنوان يعتبر مفتاحًا إجرائيًا في التعامل مع النص في بعده الدلالي والرمزي"(١٧).

وعنوان القصيدة التي بين أيدينا (**ضد من؟**) هو عنوان يخلق غموضًا كما يوحي من أول وهلة للقارئ بالمواجهة المحتملة من خلال تركيبته اللغوية وما توحي به من دلالات غير أن هذه المواجهة غير محدِّدة للطرف الآخر الذي سيواجهه.

إذ ينبني العنوان على تركيب استفهامي من خلال إضافة الاسم (**ضد**) إلى اسم الاستفهام (**مَنْ**)، وبالتعمق في هذا التركيب نجد أن هناك محذوفًا هو المبتدأ للتركيب الإضافي الذي يمثل خبرًا، والذي يمكن تقديره بـ(المواجهة)، وتصبح بذلك المواجهة حتمية، غير أن طرف المواجهة مجهول يمكن أن يتكشف من خلال التقدم نحو النص أكثر في بنياته الدلالية المتعددة، ويخلق العنوان بذلك غموضًا مثيرًا يدفع القارئ إلى الدخول في عالم النص.

إن هذا المفتتح (**ضد من**) يتعلق بشكل كبير ببنية العمل الشعري كله، فإذا كان اللون هو المفردة التعبيرية التي يوظفها الشاعر في تصوير فلسفته على فراش المرض تجاه ثنائية (الحياة/ الموت) فإن اللونين المختارين يحملان دلالة ضدية (البياض/ السواد)، وهذه الضدية مختصرة في بنية العنوان على نحو لافت.

- **ثنائية اللون في القصيدة**

يقال في الاستعارة:"عيش أخضر، وموت أحمر، ونعمة بيضاء، ويوم أسود، وعدو أزرق"(١٨). وبم أن السيميائية: هي علم العلامات أو الإشارات أو الدلالات اللغوية أو الرمزية سواء أكانت طبيعية ولا يتصرف فيها الإنسان (كصوت الحيوانات أو عناصر الطبيعة أو الأصوات الدالة على التوجع)...أم اصطناعية ويتوافق الإنسان عليها في مدلوله ومقصودة مثل (لغة الإنسان أو علامات المرور)(١٩)، فإن ذلك كله يتيح لنا مساحة كبيرة للتأويل والاستنباط.

وقد بنيت القصيدة على ثنائية لونية هي (الأبيض/ والأسود)، وقد أحسن الشاعر توظيفهما في البوح عن مكنون النفس الإنسانية تجاه الواقع المتأزم. ولهذين اللونين دلالات عامة وخاصة، أما الدلالات العامة فـ"الأبيض لون مرتبط عند الشعوب -بما فيهم العرب- الطهر والنقاء، وقد استخدمه العرب القدماء في تعبيرات تدل على ذلك، وقد قالوا: كلام أبيض، ويد بيضاء"(٢٠).

أما اللون "الأسود فقد استعمله العرب القدماء في تعبيرات عدة، مثل: سواد القوم أي معظمهم، وسواد النخل والشجر أي خضرته، وسواد المال أي كثرته، والكلمة السوداء أي القبيحة، وسواد الإنسان أي شخصه"(٢١).

وقد وظف الشعر التعبير بهذه الثنائية (الأبيض/الأسود) على النحو الآتي:

في غرف العمليات

كان نقاب الأطباء أبيض

لون المعاطف أبيض

تاج الحكيمات أبيض

أردية الراهبات

الملاءات

لون الأسرَّة، أربطة الشاش والقطن

قرص المنوم، أنبوبة المصل

كوب اللبن

أما عن السواد فيقول:

فلماذا إذا مت

يأتي المعزون متشحين بلون الحداد

هل لأن السواد

هو لون النجاة من الموت

لون التميمة ضد .. الزمن

ضد من؟

والدلالات الخاصة -إزاء هذه الألوان- هي ما يتمثله كل فرد على حده، بناءً على الحالة الشعورية التي يحياها، والملابسات السياقية التي تمر به، لكن "الأسود -غالبًا- رمز الحزن والألم والموت، كما أنه رمز الخوف من المجهول، والميل إلى التكتم، ولكونه سُلب اللون يدل على العدمية والفناء"(٢٢). أما "الأبيض فرمز الطهر والنقاء والصدق، وهو يمثل (نعم) في مقابل (لا) الموجودة في اللون الأسود...إنه يمثل البداية في مقابل النهاية"(٢٣).

وذكاء النص أنه لم يذكر الموت بصفة الحمرة، وهذا هو المتعارف عليه في التراث العربي بأن الموت أحمر، ربما لأن هذا اللون فيه إشارة إلى لون الدم الذي هو قوام الحياة في الجسد، فلا حياة بدون دماء تجري، لكنه لو اختار هذا اللون فلربما استنبط القارئ أن الموت يُشعر الشاعر بالخوف والرهبة، وهذا ما لم يرده ولم يقصد إليه.

- **سيمائية المفارقة في النص**

من أهم ملامح بناء القصيدة الحديثة أنها تعتمد على الثنائيات التقابلية؛ لتخلص من خلال ذلك إلى التعبير عن فكرة ما، تكون هي المؤشر الدلالي المهم في مدلول النص، وبنية المفارقة "تقوم على اجتماع عناصر ثنائية متضادة لا يتوقع لها أن تجتمع في سياق واحد، أو موقف واحد، فقد نرى من الأفعال والأقوال ما يبين تجاهل العالِم وتعالم الجاهل وانخداع الماكر، وما إلى ذلك من المظاهر التي تحمل في اجتماعها وبين طياتها ذلك العنصر الذي يقوم على المفارقة"(٢٤).

إن المفارقة عنصر من عناصر البناء الفني التي تسهم في بناء الدلالة؛ حيث "يسعى صاحب المفارقة دائمًا إلى كتابة نصوصه بطريقة تجذب القراء نحوها، يجعل كلامه متضاربًا متناقضًا، يحمل دلالات كثيرة، فيغلق النص عند كتابته، ويفتحه برموز عميقة من قرائنه التي يهديها لقارئ النص؛ ليعينه في كشف المعاني الضمنية في النسيج الشعري، بإظهار المعنى الحقيقي المراد قوله"(٢٥).

وتختلف مكونات المفارقة من نص لآخر، لكنها غالبا تتمثل في العناصر الآتية: المفتاح وسيميائيته- والألفاظ ودلالاتها- والتباين والتخالف(٢٦). أما عن المصطلحين الأخيرين فالمقصود من ورائهما "أن تتعدد تفسيرات رسالة المفارقة تفسيرات متفاوتة ومتباينة، مما يولد أشكالاً مختلفة من التلقي بين قارئ متميز وآخر غرير، فالقارئ يستطيع إنتاج نصوص جديدة بعد قراءة النص السابق، وتأويله بدلالات متنوعة وواضحة"(٢٧).

إن أول ما يلفت نظرنا في هذا النص هو ذلك التنافر في القصيدة بين اللونين المتضادين (الأبيض والأسود)، والنص الأدبي قطعة من نفس صاحبه، لذا فإن دوال القصيدة ما هي إلا إشارات لمضامين عميقة يكتشفها القراء والباحثون عبر فك رموز العمل الأدبي.

لذا يمكنني القول بأن اللون هنا يحمل إيحاءات ودلالات كثيرة، كما يشير توظيفه إلى معان دلالية عميقة في هذه الأقنعة (الدوال)، وقد تتبع بعض اللغويين دلالات اللون على نحو جيد[٢٨]، بما يسمح لنا أن نستنبط قراءة تحليلية لهذا التضاد البارز في النص.

حيث نجد الشاعر هنا من خلال بناء المفارقة التقابلية بين لونين متضادين، يعقد لوحة تنافرية تغذيها فزيائية اللون الطبيعية (البياض/ والسواد) على النحو الآتي:

اللوحة الأولى	اللوحة الثانية
نقاب الأطباء أبيض لون المعاطف أبيض تاج الحكيمات أبيض أردية الراهبات.. الملاءات لون الأسرَّة، أربطة الشاش والقطن قرص المنوم، أنبوبة المصل كوب اللبن	يأتي المعزون متشحين بلون الحداد هل لأن السواد هو لون النجاة من الموت لون التميمة ضد .. الزمن

أما البياض فقد انتشر في الجزء الأول من النص في :(نقاب الأطباء، ولون المعاطف، وتاج الحكيمات، وأردية الراهبات، والملاءات ولون الأسرّة، والشاش والقطن، وقرص المنوم، وأنبوبة المصل، وكوب اللبن)، وبالرغم من كونه يثير البهجة والتفاؤل ويبعث الأمل، فإنه كان يبعث لدى الشعر إحساسًا بالضعف ودنو الأجل، "وتترابط الحياة والموت مع المفارقة، فكلاهما يحمل تضادًا وتنافرًا من الآخر، ولها رمزيات وأصداء تجيش بها الخواطر، حيث يتصارع الإنسان ويتنافر مع نفسه في التفكير الدائم متى سينتهي أجله ويعيش حياة الآخرة. إن ثنائية الحياة والموت تضفي هدوءًا وصخبًا في الآن نفسه من التفكير

فيها، وكذلك المفارقة، تنماز بسطح عميق بين حقيقة كاذبة ووهم خادع ما بين حالتين متنافرتين"(٢٩).

حيث يقول:

كل هذا يشيع بقلبي الوهن

كل هذا البياض يذكرني بالكفن

إذًا فاللون المبهج الذي يحبه الناس، ويرمزون به للملائكة، والطيبة، والنقاء، والطهر، والصفاء، ما هو إلا مبعث أحاسيس سلبية لدى الشاعر، تلك الأحاسيس التي تلون النص باللون الدلالي الحقيقي، وهو المقصود من النص، وليس اللون الفزيائي الذي يدركه البصر.

أما السواد ففيه عدة دلالات، فهو في الحقيقة يبعث معاني أخرى لدى المتلقين، كما نلحظ أن العامة في مجتمعاتنا المعاصرة قد تشاءموا من النطق بالسواد(٣٠)، والشاعر يختصر كل ذلك بإبراز دلالات الحزن والحداد، وما ينعكس على إحساس الشاعر المثقل بإحساس الهلاك، والمتشبع بقضايا الوطن.

"هل لأن السواد

هو لون النجاة من الموت

لون التميمة ضد..الزمن

ضد من؟

ومتى القلب –في الخفقان– اطمأن"

ثم ينتقل في ذكاء إبداعي لمزج اللونين في مقطع واحد؛ ليخرج لنا بهذه المفارقة الدالة على شعور الأسى الذي يسيطر على الشاعر، حيث يقول:

بين لونين: أستقبل الأصدقاء

الذين يرون سريري قبرا

وحياتي دهرا

وأرى في العيون العميقة

لون الحقيقة

لون تراب الوطن

اعتمد الشاعر على التكثيف الخلاق، فقد وظف هذين اللونين المتضادين في رسم مفارقة شديدة الوضوح، كبيرة العمق، قوية الدلالة، حيث تتخالف الألوان راسمة بعدًا غائرًا في النفس، لكن تتوافق الأحاسيس التي تشعر بطغيان الواقع بأحداثه وملماته على نفس الشاعر، ومن ثم فإن اللون يكون لديه ماهية شعورية خاصة لدى الإنسان، أما الشاعر فإنه يحمله مدلولاته الشعرية الخاصة التي تصوغ رؤيته للعالم والأشياء.

- **بنيات النص وبناء الدلالة**

لقد اهتم المنظرون للمنهج السيميائي إلى جانب تنظيراتهم بالتحليل الإجرائي على النص الأدبي، إذ إن السيميائية "أداة لإثراء القراءة، وهي نموذج أنسب لتصور قراءة داخلية دقيقة لبنية النص الأدبي ونسيجه"(٣١)، قراءة تعتمد على تفكيك أو تشريح بنية النص، وهي لذلك "لا تقف عند البنية الخارجية دون الداخلية، ولا تفصل النص عن القارئ، فهي تتجاوز البنية السطحية لتكشف عن البنية العميقة في النص(٣٢).

إن تفسير أو توضيح أي نص أدبي –ومنه النص الشعري–يحتاج إلى تفسير العلامات أو الكلمات أو الإشارات في ذلك النص، وتتجلى هذه العلامات في المستويات المختلفة: المستوى الدلالي، المستوى التركيبي، والمستوى الصوتي والإيقاعي من خلال الآليات السيميائية المتمثلة بالبنية الدلالية، ومستوى التلقي، والبنية الجمالية.

وفي البنية الدلالية تدرس الكلمات والعلامات في النص على أساس الدلالات والبنى المختلفة، وقوانين انتظامها. وفي مستوى التلقي تدرس القراءات

العديدة حول النص الشعري. أما البنية الجمالية: فتعالج النص على أساس القوانين والعلاقات المختلفة بين الكلمات مثل التشاكل والتباين والتقاين والتناص(٣٣). وذلك على النحو الآتي:

أ- البنية الدلالية:

تتجسد هذه البنية من خلال الكشف عن جملة من الدلالات التي عملت عملها في النص على صورة بنى تتداخل بعضها ببعض في ثنائية ضدية تتكشف بالوقوف على الألفاظ والعلامات للوصول لهذه البنية الدلالية، فتجد في قصيدة (**ضد من؟**) ثنائية ضدية تتداخل في النص هي ثنائية الحياة والموت التي يعبر عنها الشاعر بنبرة جارحة في حواره مع الأشياء والموجودات من حوله، معبرة عن تجربة ذاتية هي تجربة المرض مباشرة مع مفهوم الموت الذي نقله من إطاره الاجتماعي إلى إطاره الذاتي منصهرًا في التجربة الإنسانية والكونية المطلقة، كل ذلك يمكن له أن يكشف عن الانسجام النصي في ترابط البنى التي تجسد البنية الدلالية، وتتشكل البنية الدلالية من بنيتين هما:

- **البنية الانفعالية:** التي أظهرت الحزن والمأساة التي يعيشها الشاعر منذ الوهلة الأولى للنص:

في غرفة العمليات

كان نقاب الأطباء أبيض

لون المعاطف أبيض

تاج الحكيمات أبيض .. أردية الراهبات

الملاءات

لون الأسرة .. أربطة الشاش والقطن

قرص المنوم .. أنبوبة المصل ..

كوب اللبن

كل هذا يشيع بقلبي الوهن

كل هذا البياض يذكرني بالكفن!

حيث يتجلى هذا الانفعال من خلال منظورين: الأول: لغوي، وهو هذا التتابع بين التراكيب اللغوية دون حرف عطف، وكأن الشاعر يبث أشجانه عبر استقلال الوحدات التركيبية، مما يشي بأن ها هنا صرخة مكتومة مكلومة تنبعث من خلال السطور.

والثاني: سياقي وهو دخوله في غرفة العمليات والإحساس بالذهول، ومظاهر البياض الماثلة أمامه في كل ما حوله من أشياء تبعث في قلبه الضعف والوهن، وتجعله يحس بدنو الأجل في هذا المكان الذي يقبع فيه (غرفة العمليات)، والذي جعله يدير بصره في تفاصيله ومحتوياته، ويغوص في أعماقه، فيلحظ كل الأشياء والموجودات تحمل لونًا واحدًا هو لون البياض الذي يثير في نفسه الإحساس بمواجهة الفناء والموت لكنه يبدو عاجزا أمامه.

- **بنية الخضوع والاستسلام:**

يصل الشاعر إلى حالة من اليأس والعجز عن المواجهة، تفضي به إلى الشعور بالاستسلام أمام هذا الخصم العنيد (الموت)، حيث يستحضر حالة وفاته وتوقف حركة الدوران القسري للحياة، ومجيء الناس للعزاء، تعلوهم شارات الحداد السوداء.

ويتبدى هذا الشعور عبر بنية الاستفهام التي تكررت في هذا الموضع أربع مرات، على النحو الآتي:

١-فلماذا إذا مت ..

يأتي المعزون متشحين ..

بشارات لون الحداد ؟

٢-هل لأن السواد ..

هو لون النجاة من الموت ؟

لون التميمة ضد ... الزمن ..

٣–ضد من ..؟

٤–ومتى القلب في الخفقان –اطمأن ؟!

هذه الأسئلة التي تتبادر إلى ذهن الشاعر تعكس إشارة دلالية توحي بسيطرة هاجس الموت عليه، ويصبح الموت بالنسبة للشاعر وسيلة للانتقال والتبدل في مواجهة السكون الكامن حوله في المكان/ الغرفة، فموته يجسد حركية، حيث يأتي المعزون متشحين بشارات لون الحداد، فيتغير البياض إلى سواد، وهل السواد هو لون النجاة من الموت السريري الذي يحسه في هذه الغرفة، والفناء الأبدي الذي يكتنف أعماقه.

وتنتظم هاتان البنيتان الدلاليتان في النص مرتبطتين مع بعضهما البعض، مجسدتين الثنائية الضدية التي يعبر عنها النص (الموت/ الحياة)، أو بعبارة أخرى: الحياة في مواجهة الموت، أو البياض والسواد اللذين يجسدهما الشاعر في المقطع الأخير، حيث يقول:

"بين لونين أستقبل الأصدقاء ..

الذين يرون سريري قبرا ..

وحياتي دهرا"

ولكن الشاعر بين هذين اللونين الحياة والموت، والسواد والبياض يرى لونًا آخر:

"وأرى في العيون العميقة

لون الحقيقة

لون تراب الوطن"

هذه الرؤية المتأملة لأعماق النفس الإنسانية ترى في تراب الوطن ملاذًا آمنًا من الآلام، وعزاء حقيقيًا يلوذ به، يخفف عنه ما تعانيه نفسه الحزينة ويبقى تراب الوطن هو الناجي الوحيد من الموت والفناء الذي يتهدد الحياة.

ب- البنية الجمالية:

أي التي تتمثل في الشكل الذي أنجز فيه النص، وإذا جئنا للبحث عن نظام العلاقات بين العلامات في النص، فنجد بعض المصطلحات السيميائية تحقق ذلك النظام الذي يحكم علاقات العلامات بعضها ببعض، ومن هذه المصطلحات مصطلح (التشاكل) (والتباين)، ومصطلح (الأيقونات).

التشاكل:

يصبح التشاكل والتباين قانونًا للعلاقات بين العلامات، بالربط الدلالي الذي نجدهما بين الصيغ والتراكيب المتشاكلة والمتباينة، من حيث الأساليب والتعابير أو المعنى والدلالة(٣٤).

وفي قصيدة (**ضد من**) نلحظ تشاكلًا على مستويات عدة، يستفيد منه الشاعر لعرض الأفكار والأحاسيس المتشابهة. فمن ذلك:

التشاكل التركيبي النحوي:

يتمثل بتراكيب متشاكلة يوظفها الشاعر، حين يعبر عن إحساسه بالألم والموت والفناء، فيأتي التركيب متشاكلًا معبرًا عن حالته:

"كان نقاب الأطباء أبيض

لون المعاطف أبيض

تاج الحكيمات أبيض".

فالتركيب يتشكل من ثلاث جمل مؤلفة من: اسم مبتدأ نكرة مضاف إلى اسم معرف ب(ال) + خبر (أبيض) الذي تكرر في الجمل الثلاث، ويصبح التشاكل التركيبي تاما بعد استثناء الفعل الناسخ (كان) في الجملة الأولى، ثم

يستمر التشاكل التركيبي والصرفي عبر الكلمات التي تتوالى للتركيب الإضافي وإن لم يكن التشاكل تاما في بعضها:

"أردية الراهبات

لون الأسرة ..

أربطة الشاش

قرص المنوم ..

أنبوبة المصل ..

كوب اللبن"

هكذا يظهر التشاكل من خلال التركيب الإضافي المكون من (اسم نكرة + اسم معرف بـ(ال) الممتد رأسيًا معبرًا عن حالة من الإحساس بالضيق والرتابة ناقلًا لوحة مترابطة تعمق إحساسه بالموت والفناء.

ومن التشاكل أيضًا في المقطع الثالث قوله:

الذين يرون سريري قبرًا

وحياتي دهرًا

حيث يصور حالة تشابه الرؤيا تجاهه لدى أصدقائه الذين يأتون لزيارته، فهم يرون أن سريره قد أصبح بالنسبة له قبرًا، وحياته دهرًا من طول معاناته لهذا المرض، لتعبر هذه اللوحة عن الصورة القاتمة التي يرسمها الشاعر مفعمة بالفناء وعبثية الحياة.

ومما يمثل البنية الجمالية: التكرار الذي يشيع في النص.

كلمة (لون) التي تكررت على مستوى النص رأسيا (**ثمان**) مرات، ثم كلمة (**أبيض**) التي تكررت بصيغ متنوعة (**أربع**) مرات، وكلمة السواد مرة واحدة، وكلمة الموت تكررت (**مرتين**) إلى جانب مرادفاتها ومتعلقاتها بصورة بارزة وهي :(الكفن، المعزون، الحداد، قبر) في مقابل ورود لفظة (**حياتي**) مرة

واحدة بما يوحي بتغلب الإحساس بالموت على الحياة في ثنائية ضدية عبرت عن نفسٍ ترى الموت في كل شيء.

ومما يتعلق بالبنية الجمالية للنص (الأيقونة)، وهي معطى سيميائي، إذ إنها "أحد أشكال العلامة، يبدو لنا فيه الدال شبيهًا أو محاكيًا للمدلول على نحو واضح من حيث المظهر أو الصوت أو الملمس أو المذاق أو الرائحة، أي مماثلا له في بعض خصائصه"(٣٥)، فالأيقونات تتشكل عن طريق الحواس الخمسة، فيستمد الشاعر حواسه ليصور أحاسيسه وعواطفه ويعمقها بواسطتها، ومن أبرز الأيقونات الماثلة في النص الشعري:

الأيقونة اللونية:

هذه الأيقونة تتعلق بالألوان المختلفة كي يعطي صورَهُ عمقًا وبعدًا، وأمل دنقل يستمد من اللون الأبيض وسيلة فاعلة تعكس صوره، فهو يوظف اللون الأبيض حاملاً من خلاله دلالة رمزية على الموت على غير عادة الشعراء، ويظهر مدى براعة الشاعر في استخدام هذا اللون، حين يقدم من خلاله لوحة فنية رائعة، فاللون الأبيض في معاجم اللغة: (ما كان لونه البياض، وهو لون الحليب والثلج، ويحمل دلالات في الموروث الشعبي على الصفاء والنقاء والطهارة والطيبة).

وأمل دنقل تخطى هذا فنظر إليه نظرة فلسفية معتمدًا على بصيرته، فهذه الأشياء التي رآها في أجزاء غرفة العمليات وسردها(نقاب الأطباء، المعاطف، تاج الحكيمات، الملاءات، الأسرة أربطة الشاش، القطن، قرص المنوم، أنبوبة المصل) وربطها أيضًا بأشياء من الذاكرة (أردية الراهبات، كوب اللبن) لكنه لا يريد أن يخلق صورة بصرية فحسب بل ليجعل منها حضورًا فاعلًا في النسيج الشعري ، فيغدو هذا اللون ذا دلالة رمزية على الموت، (كل هذا يذكرني

بالكفن) ، فالشاعر يعيد تشكيل المفهوم اللوني لدى المتلقي محفزًا وعيه في حالة تأملية فكرية.

وقد تكرر اللون الأبيض كما قلنا سابقًا (٤) مرات صراحة، وإذا أضفنا إليها المفردات التي وظفها دالةً على هذا اللون وهي ثمان كلمات يصبح تردده (١٦) مرة، في مقابل دال السواد الذي أتي مرة واحدة بلفظه ومرة بلفظ (لون الحداد)، ويبدو أن الشاعر من خلال أساليب الاستفهام المتكررة ،في المقطع الثاني، لربما أراد من خلال هذا التردد للون الأبيض مقاومة ومواجهة ذلك الإحساس بالفناء والموت والسواد المتمثل في نهاية الحياة وقدوم الموت، وهل اللون الأسود في عمق فلسفة الشاعر هو تميمة للأحياء ضد الزمن ، ضد الموت!

الشاعر يختزل الألوان في لونين الأبيض والأسود؛ ليحملهما دلالات رمزية تعكس رؤيته للحياة والموت بين هذين اللونين: (بين لونين أستقبل الأصدقاء...)، لكن بصيرته تتكشف عن لون واحد يمكن له أن يواجه الموت الذي يوقف الحياة، وهو لون تراب الوطن الذي يستطيع أن يقاوم الموت والفناء.

أخيرا يمكن الوقوف على بعض من جمالية التشكيل الصوتي للقصيدة، إذ إن البنية الصوتية في النص الشعري ينظر إليها في إطار الدلالة، والتشكيل الصوتي يمثل صدى للشعور القائم في النفس[٣٦]، وبالنظر إلى حرف الروي المتعلق بالقافية التي استخدمها الشاعر في القصيدة نجد أن حرف النون هو الصوت المهيمن في بنية القافية على مستوى القصيدة الذي يتحول منه الشاعر ليعود إليه مرة أخرى، وهو يوحي بحالة الأنين، ومما يساعد على ذلك أنه شبه حركة، وهو من الحروف الكثيرة الدوران باللغة، ويبدو أن الشاعر رأى في هذا الصوت إشارة دالة عن أعماق نفسه المتألمة التي تقاسي أنات المرض، وكما أن الشاعر قد اختار المقيدة (الساكنة) على امتداد القصيدة مع حروف الروي

المتعددة التي أتت معظمها ساكنةً على النحو التالي (تْ، ضْ، نْ، دْ،ةْ)، إذ إن القافية المقيدة تعبر عن حالة من الجمود والسكون التي تعكس الحالة النفسية للشاعر الذي يحس بالموت والفناء وتوقف الحركة والحياة في أعماقه، واستطاع بذلك أن ينقل للمتلقي هذه الأحاسيس بصورة مؤثرة وممتعة.

خاتمة البحث

اتخذ البحث من وسائل التحليل السيميائي عدة مكونات بهدف تحليل النص وبيان دلالاته ومضامينه، فكان منها: العنوان، والمفارقة، وثنائية اللون، وبنيات النص اللغوية والسياقية، وانتهى البحث إلى النتائج الآتية:

- اعتمدت القصيدة على عنصر التكثيف الدلالي منذ اللحظة الأولى (عنوان القصيدة) وذلك عبر توليد دلالات إنشائية متراكبة وموحية، كما كان العنوان حاملا لأبعاد شعورية عبر جعله جزءا من المكونات اللغوية في النص.
- سيمائية اللون في القصيدة جاءت تابعة لفلسفة خاصة لدى الشاعر، هي فلسفة الحياة والموت، وذلك في المرحلة التي كان فيها طريح الفراش يصارع المرض، وقد كانت هذه المدة كفيلة أن تصوغ إحساس أمل دنقل على نحو خاص أقرب إلى النزعة الصوفية في مرحلة منه، وإلى النزعة التشاؤمية في مرحلة أخرى.
- كان للون دلالات عامة ودلالات خاصة في النص، أما الدلالات العامة فقد أشار إليها اللغويون النقاد بما يدل على ارتباط البياض بالصفاء وارتباط السواد بالحزن، لكن الشاعر كان لديه أحاسيس أخرى تغايرت مع هذا المنطق، وأحدث بنية شعورية خاصة في النص.

- شكلت المفارقة بنية مهمة في بناء القصيدة عبر إبراز كلامه متضاربًا متناقضًا، يحمل دلالات كثيرة، فيغلق النص ثم يتركه مفتوحًا برموز عميقة من الجمهور لعينه في فهم النص وتحليل أبعاده الداخلية.
- تتعدد تفسيرات رسالة المفارقة تفسيرات متفاوتة ومتباينة، مما يولد أشكالاً مختلفة من التلقي بين قارئ متميز وآخر غرير.
- تعددت بني النص الشعري تعددا مبنيا على المغايرة، فبين البنية الدلالية إلى البنية السياقية نجد الشاعر لا يعتمد عنصر التكلف ولي أعناق النص، بل يلحظ ذلك الإصرار الذي كان يتسلح به ما زال معه وهو على فراش الموت.

هوامش الدراسة

• باحثة أكاديمية بجامعة جازان – السعودية.

(١) ينظر: جمالية التشكيل الشعري في قصيدة (السرير) لأمل دنقل، زاهية داكن ، مجلة الخطاب، العدد ٢٥، صـ٦٣.

(٢) اللغة واللون، أحمد مختار عمر، طبعة: عالم الكتب، الطبعة الثانية ١٩٩٧م.

(٣) ينظر: قصيدة (لا أبكيه) لأمل دنقل، دراسة أسلوبية، محمد السيد حسن، مجلة الذاكرة، صادرة عن مخبر التراث اللغوي والأدبي في الجنوب الجزائري، العدد الحادي عشر، جوان ٢٠١٨م، صـ١٧٢.

(٤) ينظر: أمل دنقل عن التجربة والموقف، حسن الغرفي، مطابع أفريقيا الشرق، الدار البيضاء ١٩٨٥م. وينظر:التراث الإنساني في شعر أمل دنقل، جابر قميحة، طبعة هجر للطباعة والنشر– القاهرة ١٩٨٧م. وينظر:سيرة أمل دنقل، الجنوبي، عبلة الرويني، دار سعاد الصباح، القاهرة الطبعة الأولى ١٩٩٢م.

(٥) الخطيئة والتكفير— من البنيوية إلى التشريحية نظرية وتطبيق، عبدالله الغذامي، ط٦، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ٢٠٠٦م، صـ٤١.

(٦) المصطلحات الأدبية الحديثة، محمد غنائي، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، ١٩٩٦م، صـ١٥٣-١٥٤.

(٧) ينظر: علم الإشارة – السيميولوجيا – بيير جيرو، ترجمة/ مازن الوعر، صـ٩، وأيضا: دور السيميائية اللغوية في تأويل النصوص الشعرية، شعر البردوني أنموذجًا، هيام عبد الكريم عبدالحميد علي، رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية ٢٠٠١م، صـ١٢.

(٨) السابق نفسه.

(٩) السيمائية وفلسفة اللغة، إمبرتو إيكو، ترجمة أحمد الصمعي، مركز دراسات الوحدة العربية، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، بيروت- نوفمبر ٢٠٠٥م، مقدمة المترجم، صـ١٣.

(١٠) السابق، صـ١٦.

(١١) السابق، صـ١٧.

(١٢) السابق، صـ٢١.

(١٣) الأعمال الشعرية الكاملة، أمل دنقل، ديوان أوراق الغرفة رقم ٨، قصيدة ضد من.

(١٤) ديوان: أقوال جديدة عن حرب البسوس، ضمن الأعمال الشعرية، صـ ٣٩٤.

(١٥) العنوان وبنية القصيدة في الشعر العربي المعاصر، أحمد كريم بلال، ط/ دار النابغة، الطبعة الأولى ٢٠١٨م صـ٢١٧. وينظر: الشعر العربي الحديث، رشيد يحياوي، صـ ١١٢.

(١٦) معجم السيميائيات، فيصل الأحمر، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط/١، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م، صـ٢٢٦.

(١٧) ينظر: علم السيمياء والعنوان في النص ، بلقاسم دفة ، محاضرات الملتقى الوطني الأول للسيمياء والنص الأدبي، منشورات جامعة بسكرة، ٢٠٠٠م ، صـ ٣٨.

(١٨) فقه اللغة، للثعالبي، صـ ١٢٨.

(١٩) ينظر: (التحليل السيميائي لـ" الناس في بلادي " لصلاح عبدالصبور ، حسن مجيدي و آسية فولادي ، مجلة دراسات الأدب المعاصر ، السنة الرابعة ، العدد ١٦ ، ١٣٩١هـ ، صـ٢٨

(٢٠) اللغة واللون، أحمد مختار عمر، صـ٦٩.

(٢١) اللغة واللون، أحمد مختار عمر، صـ٧٢.

(٢٢) اللغة واللون، أحمد مختار عمر، صـ١٨٦.

(٢٣) اللغة واللون، أحمد مختار عمر، صـ١٨٥، ١٨٦.

(٢٤) خطاب المفارقة في الأمثال العربية، رسالة دكتوراه بكلية الآداب جامعة بسكرة، بن صالح نوال، ٢٠١١-٢٠١٢م،صـ٩.

(٢٥) المفارقة في شعر الصنوبري، يسري خليل أبو سنينه، رسالة ماجستير جامعة الخليل، ١٤٣٧هـ- ٢٠١٥م، صـ١٦.

(٢٦) ينظر: المفارقة في شعر الصنوبري، صـ ١٦، ١٧.

(٢٧) المفارقة في شعر الصنوبري، صـ١٦.

(٢٨) ينظر: اللغة واللون، أحمد مختار عمر، صـ ٦٥ وما بعدها.

(٢٩) المفارقة في شعر الصنوبري، صـ٣٦.

(٣٠) ينظر: اللغة واللون، أحمد مختار عمر، صـ٧٣.

(٣١) ينظر: ينظر: التحليل السيميائي لـ" الناس في بلادي " لصلاح عبدالصبور ، حسن مجيدي و آسية فولادي ،السابق ، صـ٢٨

(٣٢) التحليل السيميائي للخطاب الشعري في النقد العربي المعاصر (مستوياته وإجراءاته)، فاتح علاق، مجلة جامعة دمشق، المجلد ٢٥، العدد الأول والثاني، ٢٠٠٩م ، صـ١٥١.

(٣٣) ينظر: التحليل السيميائي لـ" الناس في بلادي" ، مرجع سابق ، صـ٢٩.

(٣٤) ينظر: التحليل السيميائي في "الناس في بلادي.. ، مرجع سابق، صـ٤٠.

(٣٥) ينظر: أيقونة الخيول في نص أمل دنقل "الخيول"، ختام عثمان الخولي ، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية ، المجلد ٤٠ ، العدد ٣، ٢٠١٣م ، صـ ٦٦٢

(٣٦) ينظر جمالية التشكيل الصوتي في قصيدة (السرير) لأمل دنقل، زاهية داكن ، مرجع سابق ، صـ٧٥.

الفهرس

م	اسم الباحث	موضوع البحث	الصفحة
١	د. عمر محمد الأمين علي	الجملة الاسميَّة في بائية علقمة، دراسة نحويَّة دلاليَّة	١١
٢	د/ نجيب عثمان نجيب أيوب	إعلامية النص المُبهم في شعر محمد عفيفي مطر (رصد لطبيعة تطور الأداء اللغوي للخطاب الشعري المعاصر)	٥٣
٣	د. مديحة جابر أحمد السايح	تفعيل منظومة السكاكي التحليلية فى "مفتاح العلوم" تجربة نقدية فى رائية أبى صخر الهذلي	٩٩
٤	د/ ميمونة محمد مدخلي	سيمائية اللون في قصيدة (ضد من) لأمل دنقل دراسة تحليلة	١٥١

رقم ايداع

١٨٥٥٨/ ٢٠١١

الترقيم الدولي

(ISSN ٢٣٥٦ - ٩٨٦٧)